



al-Burhān

JOURNAL OF QUR'ĀN AND SUNNAH STUDIES

VOLUME 2, NUMBER 1, JUNE 2018



INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA

eISSN: 2600-8386



al-Burhān

Journal of Qur'ān and Sunnah Studies
Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences

Volume 2

1440/2018

Issue No. 1

Editor-in-Chief

Assoc. Prof. Dr. Ammar Fadzil

Assistant Editor

Asst. Prof. Dr. Nadzrah Ahmad

Managing Editor

Mardhiah Binti Ahmad Sahimi

Editorial Board

Prof. Dr. Mohammed Abullais Shamsuddin
Assoc. Prof. Dr. Radwan Jamal Yousef Elatrash
Assoc. Prof. Dr. Noor Mohammad Osmani
Assoc. Prof. Dr. Spahic Omer
Asst. Prof. Dr. Muhammad Adli Musa
Asst. Prof. Dr. Khairil Husaini Jamil
Asst. Prof. Dr. Mohd Shah Jani
Asst. Prof. Dr. Sofiah Samsudin

Advisory Board

Prof. Dr. Muhammad A. S. Abdel Haleem, University of London
Prof. Dato' Dr. Mohd Yakub @ Zulkifli Bin Mohd Yusoff, Malaysia
Prof. Dr. Awad Alkhalaf, UAE

© 2017 IIUM Press, International Islamic University Malaysia. All rights reserved.

ISSN 2600-8386

Correspondence

Managing Editor, *al-Burhān*
IIUM Journal of Qur'an and Sunnah Studies
International Islamic University, Malaysia
P.O Box 10, 50728 Jalan Gombak,
Kuala Lumpur, Malaysia
Tel: (603) 6196-5531
E-mail: alburhan@iium.edu.my
Website: <http://journals.iium.edu.my/al-burhan>

Published by:

IIUM Press, International Islamic University, Malaysia
International Islamic University, Malaysia
P.O Box 10, 50728 Jalan Gombak,
Kuala Lumpur, Malaysia
Tel: (603) 6196-5014, Fax: (603) 6196-6298
Website: <http://iiumpress.iium.edu.my/bookshop>

التجارة وسيلة لوحدة الأمة الإسلامية: دراسة قرآنية تحليلية

Business; A Way to Strengthening the Unity of Muslim Ummah: An Analytical Study

*** نذر الأفندي بن جاني، ** صفية شمس الدين، * نور ذات أمن بنت محمد

Nor Zatu Amni binti Mohamad, Sofiah binti Samsudin, Nazrul Affandi bin Jani

ملخص البحث: يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على موضوع التجارة ووحدة الأمة في القرآن الكريم. ويستخدم هذا البحث المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي؛ وذلك بجمع الآيات القرآنية التي تتعلق بالتجارة كوسيلة لتقوية وحدة الأمة، ودراسة الآيات من كتب التفسير ثم تحليلها بغية الوصول إلى النتائج المرجوة منها. وتوصل البحث إلى أهم النتائج، منها: إنّ التجارة في القرآن تحث أفراد الأمة على العمل وكسب الحلال، ومن مقتضى حكمة الله ﷻ أن يشبه معاملته البشر معه بكلمات تتعلق بالتجارة حتى يقرب معنى الثواب الغيبي الأخروي بالربح المئوي الدنيوي. وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدلّ على أنّ من الضروري أن تتذكر الأمة تجارتها المعنوية مع ربها كلّما خاضت في تجارتهم الحسية الملموسة. فمن المفروض أن تؤخذ التجارة كوسيلة لوحدة الأمة الإسلامية بالسعي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، وتحسين الأخلاق، ومحاربة الفقر، وابتغاء فضل الله تعالى، والدعوة إليه ﷻ، وتقوية علاقات الخلق فيما بينهم.

كلمات مفتاحية: التجارة، وحدة الأمة، دراسة قرآنية.

Abstract: The objective of this study is to enlighten the topic on business and *Ummatic* unity in the Holy Qur'an. This research uses the descriptive and analytical methods; by compiling the Qur'anic verses about business as a path to strengthen the *Ummatic* unity and revising them in the exegesis books, then to analyse them in order to arrive at the results. Among the most important findings of this research; the business in the Qur'an encourages the *Ummah* towards employment and acquiring the legal provisions. By the wisdom of Allah The Almighty, He makes analogies of the interactions between Him and humans using the words related to business so that the unseen rewards of afterlife become closer by comparing to the glimpsed profit of this world. This shows that it is very important for the *Ummah* to always remember their metaphysical transactions with their Lord -The Giver- every time they enter their physical transactions. The business must be taken as a way to strengthen the unity of the Muslim *Ummah* by striving towards the success in this world and in the hereafter, beautifying the characters, fighting the poverty, searching Allah's bounties, preaching towards Allah and strengthening the relations between them.

Keywords: business, *Ummatic* unity, Qur'anic study

* PhD student, Department of Qur'an and Sunnah, Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia (IIUM). Email: amni_49@yahoo.com.my.

** Assistant Professor, Department of Qur'an and Sunnah, Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia (IIUM). E-mail: sofiahs@iium.edu.my.

*** PhD student, Department of Qur'an and Sunnah, Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia (IIUM). Email: affandisama@iium.edu.my.

تمهيد

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 29]، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 9-10]، وقال الله تعالى: ﴿رَجُلًا لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37]؛ وقد خاطب الله ﷻ المؤمنين بخطاب مباشر فمنها في الآية الأولى عن أكل أموال الناس بالباطل ونص على "التجارة" في الاستثناء. وأمرهم بترك "البيع" في الآية الثانية عند النداء لصلاة الجمعة وأمرهم بعد ذلك بالعودة إلى "وابتغوا من فضل الله" في مشاغل عيشهم. وفي الآية الثالثة جعل الله تعالى عدم الالتئام بالتجارة والبيع عن ذكره ﷻ شرطاً ليجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله¹.

فهناك تساؤلات شتى على سبيل البحث عن الحكمة العظيمة وراء هذا الخطاب المعجز، ومن هذه التساؤلات ما يلي:

1. ما الحكمة من تخصيص التجارة دون سائر الأنشطة الأخرى الزراعية والصناعية في الاستثناء من أكل أموال الناس بالباطل؟
 2. ما سبب تخصيص ترك البيع عند النداء لصلاة الجمعة ولم يقل: وذروا الزراعة أو الصناعة أو غيرها من الأنشطة الأخرى؟
 3. لماذا جعل الله تعالى عدم الالتئام بالتجارة والبيع عن ذكره ﷻ كشرط ليجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، ولم يقل: رجال لا تلهيهم زراعة أو صناعة أو أشغال أخرى؟
- فهذه التساؤلات تدل على أنّ التجارة هي أهم الأنشطة الجامعة لأعمال الحياة، والأساس الذي تعتمد عليه كل الأنشطة الأخرى مثل الزراعة والصناعة لضمان نشاطها والاستمرار فيها لأن التاجر وسيط بين من ينتج السلع ومن يستهلكها، فإذا خاطب الله تعالى المؤمنين بترك أهم الأنشطة، وأساس حركتها من أجل سماع الخطبة وصلاة الجمعة فإنه يكون قد خاطبنا بترك ما سواها من زراعة، وصناعة، وأشغال أخرى من باب أولى؛ فيتبين من هنا أنّ الله سبحانه قد جعل التجارة محوراً للنشاط الاقتصادي، فنص عليها دون سائر الأنشطة².

¹ يبلى إبراهيم أحمد العليمي، العناية بالتجارة في الاقتصاد الإسلامي، (القاهرة: جامعة القاهرة، ط1، 2007م)، ج1، ص71-72.

² العليمي، العناية بالتجارة في الاقتصاد الإسلامي، ج1، ص71-72.

كيفية أخذ التجارة كوسيلة لوحدة الأمة الإسلامية

من خلال هذا البحث سوف نتعرف على كيفية أخذ التجارة كوسيلة لوحدة الأمة من خلال ستة تحريصات مختلفة سجلها القرآن الكريم:

1. تحريض الأمة على السعي لنيل الفلاح في الدنيا والآخرة

حرّض القرآن الأمة على السعي والكسب والاجتهاد، وهذا ما أكدّه الدكتور حيدر عند بيان مدلول كلمة "التجارة" في القرآن؛ أنّها تتضمن معنى الاجتهاد والسعي المستمر³. فالتجارة بالنسبة للأمة لا تعني فقط تمكينهم من شراء ما تقوم عليه حياتهم من سلع وخدمات، وإنّما تعني أيضاً تمكينهم من نيل ثواب الله تعالى بسبب تسهيلهم حياة الآخرين⁴. فتلك حكمة من حكم تخصيص ذكر التجارة من بين سائر الأنشطة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29].

ف نجد أنّ القرآن يشبّه معاملته البشر معه **بِكَلِمَةِ** "التجارة" وبالكلمات المتعلقة بالتجارة مثل "البيع" و "التمن". فالتاجر عند تدبّره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: 29]، و﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]، و﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [النحل: 95]، والآيات الأخرى مثلها، سوف يتذكر حينها تجارته المعنوية مع ربه الرزاق الوهاب كلّما خاض في تجارته الحسيّة.

فلذلك، قال الإمام ابن عاشور في تفسير آية ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16] أنّ نفي الاهتداء في هذه الآية كناية عن إضاعة القصد والعزم لأنّهم أضاعوا ما سعوا له، ولم يعرفوا عاقبة أمورهم، فهذا النداء يظهر المنافقين في حالة من سَفَه الرأي وضعف العقل، ويجري مجرى العلة لعدم ربح التجارة، فشبه القرآن سوء تصرفهم حتى في كفرهم بسوء تصرف من يريد الربح⁵. فلا غبار أنّ كل تاجر يحرص على الربح، فالتاجر المؤمن يعتبر أنّ دخوله في صفقة الإيمان تجارة، يأخذ منها أكثر من رأس ماله، ويربح. أما إن ترك بعضاً من الدّين؛ فهو يخسر بمقدار ما ترك، بل وأضعاف ما ترك⁶.

³ فريد عوض حيدر، الخصائص الدلالية لآيات المعاملات المادية في القرآن الكريم مع تطبيق لنظرية المجالات الدلالية، (القاهرة: جامعة القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م)، ص52.

⁴ العلمي، العناية بالتجارة في الاقتصاد الإسلامي، ج1، ص76.

⁵ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية، د.ط، 1984م)، ج1، ص300-301.

⁶ محمد متولي الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، مراجعة وتخرّيج: أحمد عمر هاشم، (الأزهر: مجمع البحوث الإسلامية، د.ط، 1411هـ/1971م)، ج9، ص5695.

فالتاجر المؤمن الصدوق يجتهد في الحصول على الربحين الدنيوي والأخروي معاً بل يقدم الأخروي. فالقرآن الكريم يعلم التاجر أنه إن أراد أن يهتم بالربح الدنيوي الحسي فلا بد عليه كذلك أن يهتم بالربح الأخروي المعنوي؛ بل وتقديمه على كل شيء. فلذلك، قال الإمام البقاعي: "ولما كان الاتجار إجهاد النفس في تحصيل الربح النافع، كان الإيمان والجهاد أعظم إجهاد النفس في تحصيل الجنة الباقية التي لا ربح يوازيها"⁷. وكما ذكره الإمام ابن كثير في تفسيره: "...قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إني قمت على هذا الدرج أبيع عليه، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار، أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول: "إن ذلك ليس بحلال" ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37]⁸. ثم ينقل ابن كثير قول عمرو بن دينار الأعور: "كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وحمروا متاعهم، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد، فتلا سالم هذه الآية: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ثم قال: "هم هؤلاء"⁹. ووضح الإمام الشعراوي سبب ذلك: "لأنهم يتاجرون لهدف أسمى وأخلد، فأهل الدنيا إنما يتاجرون لصيانة دنياهم، أما هؤلاء فيتاجرون مع الله تعالى تجارة لن تبور، تجارة تصون الدنيا وتصون الآخرة. وإذا قُستَ زمن دنياك بزمن أخراك لوجدته هباء لا قيمة له، كما أنه زمن مظنون لعمر مظنون، لا تدري متى يفاجئك فيه الموت، أما الآخرة فحياة يقينية باقية دائمة، وفي الدنيا يفوتك النعيم مهما حلاً وطال، أما الآخرة فنعيمها دائم لا ينقطع. إذن: فهُمْ يعملون للآخرة"¹⁰.

2. تحريض الأمة على تحسين الأخلاق مع الخالق والمخلوق

فالقرآن يعزف المسلم بمدى الأجر والثواب والتكريم الدنيوي والأخروي الكبير الذي ينتظر التاجر الملتزم في تجارته بالأخلاق الإسلامية من صدق وأمانة... إلخ، والذي لا تنسيه تجارته، ولا يبيعه ذكر الله تعالى¹¹. فالأخلاق من لوازم الإيمان وثماره، وأكمل المؤمنين إيماناً وأعظمهم خلقاً هو النبي صلى الله عليه وسلم حيث وصف القرآن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. ومعنى هذا، أن النبي صلى الله عليه وسلم صار امتثال القرآن، أمراً ونهياً، سجية له، وخلقاً تطبّع به، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع

⁷ برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، 1415هـ/1995م)، ج7، ص585.

⁸ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (د.م: دار طيبة، ط2، 1420هـ/1999م)، ج6، ص69.

⁹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص69.

¹⁰ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج17، ص10280.

¹¹ العليمي، العناية بالتجارة في الاقتصاد الإسلامي، ج1، ص71-72.

ما جَبَلَهُ اللهُ بِحِكْمِكَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، مِنَ الْحَيَاءِ، وَالْكَرَمِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالصَّفْحِ، وَالْحِلْمِ، وَكُلِّ خَلْقٍ جَمِيلٍ¹².

فالتاجر المؤمن يجتهد في تحسين أخلاقه الإسلامية وتدريب مهاراته في بناء العلاقات الطيبة مع الخالق والمخلوق. فكما أنَّ التجارة تنجي التاجر من محنة الفقر، فكذلك هذه التجارة تعلّمه وتدرّبه لتحسين أخلاقه مع الخالق والمخلوق، ومن هذه الأخلاق الصبر والشكر والتقوى والصدق والأمانة في المعاملات التجارية، فهي حتماً تنجي التاجر الملتزم بها من عذاب النار وتكون سبباً في أن يُحشر مع الأنبياء والصديقين والشهداء، يقول النبي ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»¹³.

قال الإمام الشعراوي في تفسير قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (النور: 37): "فهؤلاء الرجال لم تُلْهِهِمُ التجارة عن ذِكْرِ اللهِ ﷻ لأَنَّهُمْ عَرَفُوا مَا فِي الزَّمَنِ الْمُسْتَقْطَعِ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَرَكَةٍ تَنْشُرُ فِي الزَّمَنِ الْبَاقِي. الصَّلَاةُ لِأَنَّهَا تَأْخُذُ وَقْتاً مِنَ الْعَمَلِ، وَكَثِيراً مَا يَنْشَغُلُ الْمَرْءَ بِعَمَلِهِ وَتِجَارَتِهِ عَنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ ظَانّاً أَنَّهَا سَتُضَيِّعُ عَلَيْهِ الْوَقْتَ، وَتُفَوِّتُ عَلَيْهِ مَصَالِحَ كَثِيرَةٍ، أَوْ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفِضُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْوَارِهِ، فَيَبَارِكُ لَهُ فِي وَقْتِهِ، وَيَنْجِزُ مِنَ الْأَعْمَالِ مِنَ الْوَقْتِ الْمَبْقِيِّ مَا لَا يَنْجِزُهُ تَارِكُ الصَّلَاةِ، أَوْ: يَرْزُقُهُ بِصَفْقَةٍ رَاجِحَةٍ تَأْتِيهِ فِي دَقَائِقِهِ، وَمِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَالْبَرَكَةُ كَمَا قُلْنَا قَدْ تَكُونُ سَبَباً وَقَدْ تَكُونُ إِجَاباً، وَهَذِهِ كُلُّهَا أَنْوَارٌ وَتَحْلِيَاتٌ يَفِضُ اللَّهُ ﷻ بِهَا عَلَى الْمَلْتَزِمِ بِمَنْهَجِهِ"¹⁴. فقد أشار القرآن في هذه الآية إلى أنَّ التاجر المعتبر في الإسلام هو التاجر الذي يقدّم ما أمره الله تعالى به على تجارته، حيث أنّه يترك تجارته التي هي تمثل قَمّة حركة الحياة وقمة التبادلات لأجل أداء فريضة الصلاة. فبتدبر مثل هذه الآية سيحسن التاجر أخلاقه مع الرحمن في حياته التجارية.

فإنّ القرآن يعلم الإنسان بأن يتخلّق بالأخلاق الكريمة، ومن هذه الأخلاق: التواضع، والغنى عن الناس، وصيانة المروءة عن السؤال. حيث قال الإمام الشعراوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَمْسُشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: 20) "أي: يرتادونها لقضاء مصالحهم وشراء حاجياتهم، دليلٌ على تواضعهم وعدم تكبرهم على مثل هذه الأعمال؛ لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ يحمل حاجته بنفسه"¹⁵. فالأعمال التجارية في الأسواق دليل من دلائل التواضع وعدم التكبر.

¹² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص189.

¹³ أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البيوع، باب مناقب عثمان بن عفان، حديث: 1209، وقال: هذا حديث حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. انظر: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، جامع الترمذي، حكم وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، اعتناء: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (الرياض: مكتبة المعارف، ط1، د.ت)، ص288. حديث حسن.

¹⁴ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، مج17، ص10280.

¹⁵ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، مج17، ص10400-10401.

وفي قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197]، قال الإمام الشعراوي: "والزاد هو طعام المسافر، ومن يدخر شيئاً لسفر فهو فائض وزائد عن استهلاك إقامته، ويأخذه حتى يكفيه مئونة السؤال أو الاستشراف إلى السؤال، لأن الحج ذلة عبودية، وذلة العبودية يريد بها الله ﷻ له وحده. فمن لا يكون عنده مؤونة سفره فرما يذل لشخص آخر، ويطلب منه أن يعطيه طعاماً، والله لا يريد من الحاج أن يذل لأحد، ولذلك يطلب منه أن يتزود بقدر حاجته حتى يكفي نفسه، وتظل ذلته سليمة لربه، فلا يسأل غير ربه، ولا يستشرف للسؤال من الخلق"¹⁶.

وفي قوله تعالى: ﴿يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءٌ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]، بين الإمام السعدي أن الله تعالى مدح الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله ﷻ، وعلى طاعته، وليس لهم وسيلة الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، ومع ذلك هم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء لأنهم لا يسألون الناس، وإن سألوا اضطراراً، لم يلحفوا في السؤال¹⁷. فمن باب أولى أن يستغني الحاج عن سؤال الناس عند أداء فريضة الحج، لأن من يسأل أو يستشرف فقد أخذ شيئاً من ذلته لله ﷻ، وأعطى منها لمخلوقاته. وربما سرق ليسد حاجته، فيدنس عبادته بالجناية¹⁸.
فلذلك، قد أمر سبحانه بالتزود في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197]، حيث بين الإمام ابن كثير أن الله تعالى أمر بالتزود الحسي في السفر الدنيوي لصيانة المروءة عن سؤال الناس بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾، ثم أرشدهم إلى الزاد المعنوي في السفر الأخروي وهو التقوى¹⁹ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197]. فالزاد هو ما تقي به النفس من الجوع والعطش، وإذا كان التزود فيه خير لاستبقاء الحياة الفانية، فمن باب أولى التزود للحياة الأبدية التي لا فناء فيها، فالتقوى هو الزاد في الرحلة الباقية²⁰.

ثم قال تعالى في الآية بعدها مباشرة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198]، أي: فلا جناح على المؤمنين من الحاج في التماس الرزق بالتجارة في مواسم الحج²¹.

¹⁶ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، مج2، ص847-848.

¹⁷ عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م)، ص958.

¹⁸ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، مج2، ص848.

¹⁹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص548.

²⁰ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، مج2، ص848.

²¹ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م)، ج4، ص162.

فالتجارة تغني الفرد عن سؤال الناس، وتزيد المهمة، وتدفع التكاسل، بل هي وسيلة من وسائل التقوى ومنبع من منابع الصدقات والزكوات وخدمة الآخرين.

فيتعلم التاجر من خلال التجارة حسن الأخلاق مع الله تعالى، منها: التوكل، والرضا، والقناعة، والصبر، والشكر، والتقوى ونحوها، فتتحسن أخلاقه مع الناس، فيكون كريماً، وحريصاً على أن يتخلق بأخلاق أهل الجنة كما وصفها القرآن: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 133-134]. قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: "ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في الشدة والرخاء، والمُنْشَطِ والمَكْرَهِ، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال... والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مَرَضِيهِ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر. وقوله: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعَفَوْا مع ذلك عن أساء إليهم"²².

3. تحريض الأمة على القيام بالتجارة لمحاربة الفقر

قد صوّر القرآن تجارة مجتمع قريش على أنها آية من آيات الله ﷻ التي تستوجب الشكر والعبادة لله وحده: ﴿لَا يَلَافِ قُرَيْشٌ. إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: 1-4).

ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه السورة أنّ الله تعالى قد تفضّل على قريش بالأمن والرخص، في تجارتهم ورحلاتهم، فعليهم أن يُفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولهذا وعد الله تعالى من استجاب لهذا الأمر بالأمن الدنيوي والأخروي، وأنذر من عصاه بسلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (النحل: 112-113)²³.

وقال الإمام ابن عاشور في تفسير سورة قريش أنّ الذي سنّ لقريش هاتين الرحلتين هو هاشم بن عبد مناف. وسبب ذلك أنّ معظمهم كانوا في فقر شديد، فإذا لم يجد أهل بيت طعاماً لقوتهم حمل ربُّ البيت عياله إلى موضع معروف فضرب عليهم خباء وبقوا فيه حتى يموتوا جوعاً. فلأجل إيقاف هذه

²² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص119.

²³ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص492.

الخصاصة جمع هاشم المجتمع على رحلتين للتجارات، فما ربح الغني من التجارة قسّمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيهم²⁴.

فالتجارة تفتح فرص العمل للأمة لا سيما عند تعدّد الزراعة والأعمال الأخرى، حيث وصف الإمام البقاعي قريشاً: "وكانوا معذورين لذلك لأنّ بلدهم لا زرع به ولا ضرع، فكانوا إذا ضربوا في الأرض قالوا: نحن سكان حرم الله ﷻ وولادة بيته، فلا يعرض أحد بسوء، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف، وأول من سنّ لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف، وكان يقسم ربحهم بين الغني والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم"²⁵. فالتجارة التي تنفع المجتمع هي التي تخصص فيها الأعمال للفقراء، فيعملون ويربحون ربحاً يمنع عنهم دوام الفقر.

فقد ذكر القرآن الكريم سبباً من أسباب الفقر وهو عدم الاستطاعة على التصرف في التجارة كما في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 273)، فقال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: "وإنكار الكفار عليهم إسلامهم يمنع من التصرف في التجارة فبقوا فقراء"²⁶. فمن الواضح أنّ المنع من التصرف في التجارة سيؤدي إلى فقر الأمة وأما التشجيع على التجارة فسيؤدي إلى ثروة الأمة ونهضتها.

ولذلك لم يقل القرآن: اتركوا الزراعة، أو اتركوا الصناعة، حين أراد الله سبحانه أن يستجيب المجتمع المؤمن لأذان الجمعة، بل قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الجمعة: 9)، حيث أنه ﷻ أمر بترك البيع وقت صلاة الجمعة؛ لأنّ يشير إلى التجارة، والتجارة جامعة لكل حركات الحياة. وأما إن كان مزارعاً فهو يُعِدُّ الأرض، ويحراثها، ويذر البذور، ويرويهها، ويشدّذ النبات، وينتظر إلى أن ينضج الزرع ليفيد المجتمع. وكذلك الصانع يقضي الكثير من الوقت في إتقان الصنعة، ولكن البيع عن طريق التجارة يتيح للمجتمع فرصة الانتفاع من البضائع والخدمات بسرعة²⁷.

لذلك، فإنّ التجارة ذكرت مراراً في القرآن الكريم كمنبع للثروة والغنى²⁸. فحث القرآن الكريم على الصدقات والزكوات من التجارة التي أباحها الله تعالى بكل وضوح في قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ

²⁴ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص558.

²⁵ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج22، ص264.

²⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1427هـ/2006م)، ج4، ص372.

²⁷ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج9، ص5695.

²⁸ حسن البناء، نظرات في القرآن، تسجيل: أحمد عيسى عاشور، (القاهرة: مكتبة الاعتصام، ط1، 1399هـ/1979م)، ص81.

وَحَرَّمَ الرِّبَا» [البقرة: 275]، ومن ثم فإنَّ التجارة مهمّة للأمة لا سيما من ناحية إعداد منابع الصدقات ومواردها.

فقد مدح الله تعالى المؤدّين للنفقات، والمؤتّين للزكوات، في جميع الحالات كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 274]، والأموال يمكن كسبها بكلا الطريقتين الحلال والحرام، وهي كذلك أيضاً مما كان يكسبه المجتمع الجاهلي؛ من خلال البيع والربا، فأعلن الله تعالى الفرق الواضح بين حكم البيع وحكم الربا حيث قال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]، وقد أحلَّ الله ﷻ الأرباح في التجارة بطريق الشراء والبيع "وَحَرَّمَ الرِّبَا"، يعني الزيادة التي يزيدها رب المال بسبب زيادته لغريمه في الأجل، وتأخيره دَيْنه عليه²⁹.

ثم قارن القرآن الكريم بين الربا والصدقات بقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 276-277] حيث قال الإمام السعدي في تفسيره: أنّ الله تعالى يُذهب بركة الربا حسيّاً ومعنويّاً، فيكون الربا سبباً لوقوع الآفات الاجتماعية، وإن أنفق من الأموال الربوية فلن يؤجر عليها، بل تكون زاداً عليه إلى النار، وأما الصدقات من الأموال التجارية الخالية عن الربا، فينميها الله ﷻ وينزل البركة في الأموال التي أخرجت منها، وينمي أحر صاحبها³⁰. فالتجارة التي أحلها الله تعالى هي التجارة المؤدية إلى الإنفاق، وإعطاء الصدقات، وإيتاء الزكاة، وأما التجارة الربوية فقد حرمها الله ﷻ وجاء بوعيد شديد لمن يتعامل بها. فالتجارة المؤدية إلى الإنفاق، وإعطاء الصدقات، وإيتاء الزكاة، هي التجارة الحقيقية التي لا بد من تشجيعها من أجل محاربة الفقر في المجتمع.

4. تحريض الأمة على ابتغاء فضل من الله تعالى

إنَّ القرآن صوّر الهدف التجاري بابتغاء فضل الله تعالى؛ فالابتغاء هو المبالغة في الطلب لأنَّ الفعل بصيغة الافتعال يدل على الاجتهاد والمبالغة³¹. فيسرّ الله تعالى الفلك في البحر لمصالح عباده لكي يبتغوا من فضله في التجارة كآية من آياته تعالى على لطفه بخلقه³². ومن هذه الآيات: (البقرة: 164)، و(النحل: 14)، و(الإسراء: 66)، و(الروم: 46)، و(فاطر: 12)، و(الجنّ: 12)، حيث يذكر تعالى

²⁹ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج6، ص13.

³⁰ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص116.

³¹ حيدر، الخصائص الدلالية لآيات المعاملات المادية في القرآن الكريم، ص67.

³² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، ص95.

نعمته على العباد بما ألهمهم من صنعة الفلك والسفن، وتسخير البحر لهذه المراكب، فيحملها على ظهره لينتفع العباد بها في الركوب وحمل البضائع والتجارة³³.

فخاطب الله تعالى الناس جميعاً ومنهم التجار أن يطلبوا مجتهدين ما يحملون فيه من البضائع ويتوصلون إليه بمقاصد شتى ومنها التجارة، وذلك لتظهر عليهم آثار نعمته، ويشكرون الخالق الواحد الأحد، فيزيدهم من فضله في الدنيا والآخرة³⁴. وقال الإمام الرازي في تفسير ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: 10) أنها صيغة أمر بمعنى الإباحة لجلب الرزق بالتجارة بعد المنع، بقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ (الجمعة: 9)، وأن الله تعالى أحل لهم ابتغاء الرزق بعد الصلاة، إما بالتجارة وغيرها، فمن شاء خرج، ومن شاء لم يخرج. فهو إذن من الله تعالى في الابتغاء من فضله وَعَلَيْكُمْ إذا فرغ العبد من الصلاة، أن يطلب الرزق، أو الولد الصالح، أو العلم النافع وغير ذلك من الصالحات والأمر الحسن³⁵.

وإن الله سبحانه بسعة لطفه ورحمته يريد من الإنسان أثناء أداء فرضية الحج باعتبارها شعيرة من الشعائر المقدسة ورحلة مباركة أن يتعاون مع أفراد المجتمع الإسلامي. فأذن للتجار من الحجاج أن يقوموا على خدمة الآخرين تيسيراً لهم، حيث قد اعتبرت التجارة خدمة ومصلحة ضرورية. فأعلن الله تعالى إذنه بالتجارة بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة: 198)، فالذين يقومون بخدمة الحجاج لهم أن ينفروا قبل غيرهم لأن تلك مصلحة ضرورية، فإن امتنع الناس جميعاً عن خدمة بعضهم بعضاً فمن الذي يقوم بمصالح الناس؟ إذن لا بد أن يذهب أناس للقيام بحظهم من العمل لخدمة الحجاج³⁶. وسبب النزول لهذه الآية ما ورد عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثّموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج³⁷.

ولماذا قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولم يقل رزقاً؟ لقد أوضح القرآن الكريم في الآية التي قبلها: الأمر بسفر الحجاج إلى الحج ومعهم زادهم. إذن ذهب الحجاج ومعهم زادهم وما يأتي من التجارة فهو زائد عن حاجتهم ويكون فضلاً من الله سبحانه وتعالى، وهو جل شأنه يريد منهم ألا يكون في تجارتهم حرج؛ فنفي الجناح عنها؛ وفي كل ابتغاء للرزق وابتغاء للفضل

³³ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص462.

³⁴ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج18، ص45-46.

³⁵ محمد فخر الدين الرازي ابن العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، (بيروت: دار الفكر، ط1، 1401هـ/1981م)، ج30، ص9.

³⁶ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، مج2، ص849.

³⁷ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾، حديث 4519، انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط1، 1400هـ)، ج3، ص200. الحديث صحيح.

لا يصح أن يغيب عن ذهن مُبتغي الرزق والفضل أنّ الفضل كله من عند الله تعالى لأنّ الرزق كله منه ﷺ³⁸. والفضل أمر زائد عن الحاجة، فلذلك تذكر الآية الأمة الإسلامية بأن كل شيء يأتي من عند الله تعالى، فهو تحريض للتجار من الحجاج كي ينالوا الفضل الدنيوي والأخروي معاً.

5. تحريض الأمة على تقوية وسائل الدعوة إلى الله ﷺ

إنّ التجارة وسيلة من وسائل الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فلذلك، كان الأنبياء يمشون في أسواق المدن والبادية لأن الدعوة تكون في مجامع الناس وأسواقهم. وكان النبي ﷺ يدعو قريشاً في مجامعهم ونواديهم وأسواقهم، ويدعو سائر العرب في عكاظ وفي أيام الحج³⁹، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد أمر الله تعالى أن تكون الأمة الإسلامية "أمة" أو "فرقة" خاصة بالدعوة إلى الخير، يأمرهم بالمعروف، وينهون عن المنكر لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]. استجابة لهذا الأمر ستقوى وسائل الدعوة إلى الله ﷺ، وأما ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سيفضي إلى الخصام والنزاع والتفرق وفشل الدعوة؛ حيث ستكثر النزعات والشقاقات الشديدة بين دول الأمة الإسلامية.

فمن المهم أن تكون في التجارة "أمة" أو "فرقة" تراقب المعاملات التجارية. فلذلك، رأى أئمة المسلمين في السابق تعيين ولاية للبحث عن المنكرات، وتعيين كيفية القيام بتغييرها، وسمّوا ذلك بـ"الحسبة"، وتسمّى هذه الولاية في المغرب "ولاية السوق"، حيث جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الولاية أم الشفاء. وأشهر من تولّاها في الدولة العبّاسيّة ابن عائشة، وكان رجلاً صلباً في الحق، وقد ولاها في قرطبة الإمام محمّد بن خالد بن مرّتينيل القرطبي المعروف بالأشجّ من أصحاب ابن القاسم توفي سنة 220هـ⁴⁰. فتعيين الحسبة هو للقيام بهذا الفرض في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقدرة على التّغيير. وإفهام النّاس ذلك هو من الأمور المهمة للغاية على سبيل جعل التجارة أساساً لتقوية العلاقات النبيلة بين دول الأمة الإسلامية.

فللحسبة أهمية عظيمة في الدعوة إلى الله ﷺ لا سيما في مراقبة التجارة حتى تسير وفق أحكام الشريعة الإسلامية، طاعة لله ﷻ ورسوله ﷺ، ومنع المنازعة التي تؤدي إلى فشل العلاقات الأخوية بين

³⁸ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، مج2، ص850.

³⁹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج18، ص343.

⁴⁰ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص41-42.

دول الأمة وتفتينها كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: 46).

فالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ترفع مكانة الأمة الإسلامية إلى درجة تجعلها "خير أمة" أخرجت للناس كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]. يذكر الإمام سيد قطب في تفسير هذه الآية أنه من الضروري على دول وجماعات وأفراد الأمة الإسلامية أن تعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون في الطليعة، لتكون لها القيادة، فلذا سماها القرآن بـ"خير أمة". والله ^{سبحانه} يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر، ومن ثم لا ينبغي للأمة المسلمة أن ترضى بقيادة غيرها من أمم الجاهلية، وإنما ينبغي دائماً أن تعطي الأمة الإسلامية هذه الأمم مما لديها من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح. فمن واجبات الأمة أن تكون في الطليعة دائماً، وفي مركز القيادة دائماً. ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له⁴¹. فالواضح، أن الأمة الإسلامية لا بد أن تسعى دائماً إلى أن تكون لها أهلية القيادة، فتدعو الجميع إلى الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح عن التجارة خاصة، وعن الحياة عامة. والإسلام بشريعته الربانية يريد أن يطهر حياة تجار الأمة طهارة تضمن حلّ ما يطعمون، وما يشربون، وما يكتسبون، لتصدر أعمالهم عن خليات إيمانية طاهرة مصفاة؛ ذلك أن الشيء الذي يصدر عن خلية إيمانية طاهرة مصفاة لا يمكن أن ينشأ عنه إلا الخير⁴².

6. تحريض أفراد الأمة على تقوية العلاقات فيما بينهم

إنّ العلاقات التجارية الطيبة ستؤدي إلى تقوية العلاقات بين أفراد الأمة لأنها واسطة مهمة تربط دول الأمة الإسلامية في أنحاء العالم برابطة المعاملات التجارية القائمة على الأمانة. فمثلاً: المسلمون في البلاد المشهورة بالزراعة ينشئون علاقة تجارية مع البلاد المشهورة بالصناعة، فينفع بعضهم بعضاً، لأن التجارة فيها حركة للحياة، كما بينها الإمام الشعراوي حيث قال: "و شاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبراً عن كثير من المواقف، لأن التجارة تمثّل جماع كل حركة الحياة، فهذا يتحرك في ميدان لينفع نفسه، وينفع غيره، وغيره يعمل في ميدان آخر؛ فينفع نفسه، وينفع غيره"⁴³. لذلك، فمن الضروري أن يحسّن ويطوّر جميع المسلمين تجاراتهم مع إخوانهم المسلمين، فتقوى علاقاتهم الأخوية

⁴¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ط4، 1397هـ/1977م)، مج2، ج4، ص447.

⁴² الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج2، ص1189.

⁴³ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج9، ص5695.

والإيمانية والتجارية، حيث يكون المنتج الذي يتاجر به جيد الإتقان وخالياً من أنواع الغش والاحتيال. فتتحقق وحدة الأمة الإسلامية من خلال التجارة بين المسلمين والتعاون فيما بينهم تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2].

ونظام الزكاة في الإسلام هو أوضح أنواع التعاون على البر والتقوى. فالتجارة تساعد على تنمية هذا النظام، فتتقوى وحدة الأمة الإسلامية. فالفارق بين الأمة المسلمة وغيرها هو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 277]. فنظام الزكاة كما بينه سيد قطب فيه عنصر البذل بلا عوض ولا رد، على خلاف النظام الربوي. فنظام الزكاة من خصائص الأمة الإسلامية بما فيه من أنواع التعاون، والتكافل، والتضامن⁴⁴. والذي ينظر إلى الزكاة على أنها تنقص من ماله، فهذه نظرة خاطئة حمقاء؛ لأن الفلاح الذي يُخرج من مخزنه أردباً من القمح ليزرع به أرضه: الأحق يقول: المخزن نقص أردباً، أما العاقل فيثق أن هذا الأردب سيتضاعف عند الحصاد أضعافاً مضاعفة. فالزكاة نمو للأموال وبركة لها⁴⁵.

وقال الإمام ابن كثير في بيان أهمية الزكاة: "فإن الله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى؛ ولهذا أمر الله ﷻ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة"⁴⁶. فنظام الزكاة حق للأمة بما فيه من التعاون على البر والتقوى، والتجارة لا بد أن ينظر إليها كمنبع للزكاة على سبيل تقوية وحدة الأمة الإسلامية، لأن التجارة تبني العلاقات وتنشر الثروات.

⁴⁴ سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 1، ج 3، ص 318.

⁴⁵ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج 17، ص 10280.

⁴⁶ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 8، ص 216.

الخاتمة

إنَّ التجارة سلاح ذو حدين؛ ففيها فوائد عظيمة تساهم في وحدة الأمة إذا تم التعامل فيها بالأمانة وفق الشريعة الإسلامية، وفيها كذلك خطورة فظيعة لأنها قد تساهم في تشتيت الأمة إذا تعاملوا بالأمور المخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية كالربا والغش والخداع. فلذلك، حرّض القرآن الكريم الأمة الإسلامية على التجارة كوسيلة للوحدة بتحريضهم على نيل الفلاح في الدارين، وتحسين الأخلاق، ومحاربة الفقر، وابتغاء فضله تعالى، والدعوة إليه ﷺ، وتقوية العلاقات فيما بينهم.

فمن أهم نتائج البحث هي:

1. إنَّ القرآن الكريم شبّه معاملات البشر مع ربّهم بالتجارة لتحريض الأمة على نيل النجاح في الدارين: الدنيا والآخرة.

2. أهمية تحسين أخلاق الأمة مع الخالق والمخلوق عند التجارة وغيرها من المعاملات والعلاقات.

3. أهمية أخذ التجارة كوسيلة لمحاربة الفقر، وابتغاء فضل الله تعالى، والدعوة إليه ﷺ، وتقوية العلاقات بين الناس ونفعهم.

4. ضرورة وحدة الأمة لإظهار واقعية القرآن الكريم بأنّ الأمة الإسلامية هي خير أمة أخرجت للناس.

فمن الضروري أن يتذكر أفراد الأمة الإسلامية تجارتهم المعنوية مع ربهم الرزّاق الوهاب كلما خاضوا في تجارتهم الحسية الملموسة. فالمفروض، أن التجارة الإسلامية لا تقود الأمة إلى اللهو والغفلة، بل تقودهم دائماً إلى تذكر التجارة الأخروية والحرص عليها.

وهناك بعض الاقتراحات وتوصيات لأجل جعل التجارة وسيلة لوحدة الأمة الإسلامية:

1- نشر كتيب خاص عن التجارة كوسيلة لوحدة الأمة لكل تاجر مسلم، بلغته الأم. فمثلاً: باللغة الملايوية للتاجر المسلم الملايوي.

2- تعليم خاص عن كيفية جعل التجارة وسيلة لوحدة الأمة، كورشة عمل للتجار المسلمين.

3- تعليم وتعلّم التجارة ومهاراتها وضوابطها الإسلامية ليس للتجار فحسب، بل للجميع، لأن الإنسان مهما كانت تخصصاته لا يستغني عن المعاملات التجارية، فإن لم يكن تاجراً، فسيكون بائعاً أو مشترياً.

4- ضرورة التخطيط للتجارة لأجل وحدة الأمة الإسلامية وليس لأجل تنمية الأرباح التجارية فحسب.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير** (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط. 1984م).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي. **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة (د.م: دار طيبة، ط2، 1420هـ/1999م).
- البخاري، محمد بن إسماعيل. **الجامع الصحيح**، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي (القاهرة: المكتبة السلفية، ط1، 1400هـ).
- البقاعي، أبو الحسن إبراهيم بن عمر. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، 1415هـ/1995م).
- حسن البنا. **نظرات في القرآن**. تسجيل: أحمد عيسى عاشور (القاهرة: مكتبة الاعتصام، ط1، 1399هـ/1979م).
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. **جامع الترمذي**، حكم وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، اعتناء: أبو عبيدة مشهور بن حسن (الرياض: مكتبة المعارف، ط1، د.ت).
- فريد عوض حيدر. **الخصائص الدلالية لآيات المعاملات المادية في القرآن الكريم مع تطبيق لنظرية المجالات الدلالية** (القاهرة: جامعة القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م).
- فخر الدين الرازي، محمد ضياء الدين عمر. **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب** (بيروت: دار الفكر، ط1، 1401هـ/1981م).
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م).
- الشعراوي، محمد متولي، **خواطر حول القرآن الكريم**. مراجعة وتخرّيج: أحمد عمر هاشم (الأزهر: مجمع البحوث الإسلامية، د.ط، 1411هـ/1971م).
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م).
- العلمي، بيلي إبراهيم أحمد. **العناية بالتجارة في الاقتصاد الإسلامي** (القاهرة: جامعة القاهرة، ط1، 2007م).
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1427هـ/2006م).
- سيد قطب. **في ظلال القرآن** (بيروت: دار الشروق، ط4، 1397هـ/1977م).